حيـرة

محمد عبد المنعم علي محمد – مصر

أحقًّا ما يراه أمامه، ولا تلاعب؟...أيعقل أن يكون حقيقيًّا ما لم يكن من الممكن تخيله؟

يراهم أمامه!...هنا والآن؟..

بالتأكيد ما يراه الآن هو عبثُ خياله. لا يوجدُ تفسير منطقيٌّ سوى هذا. أيكون الإجهاد هو السبب؟...وهو الذي طالما اشْتَهرَ بين أقرانه بالبركان؛ لفرط نشاطه وحماسته. أهو أوانُ الخمود؟..ولماذا هذه الليلة بالذات؟..

أتكون إصابتُه هي الملومة؟..وما تكون تلك في جسدِه المكون أساسًا من تجمع الإصابات والندوب؟!

تتصارع في عقله الأسئلة؛ وتراوغه الإجابات. ترتجف روحه قلقا؛ ليس بسبب الخوف، فإنّهم لا يرهبونه؛ بل إنَّ الرعب كان دائمًا من نصيبهم هم في كل مواجهاته معهم. إنما فقطْ هي الدهشة والتعجب مما يري.

كيف ولِمَ الملبَّدة بهما سماؤه تبرقان دونَ أن يمطِرا ما يشفي حيرته. يراهم يتسللون؛ يكمنون؛ كالعقارب تتحين لحظتها لتفني كل اللحظات. ربّما كان هذا هو الجانبَ الوحيد الذي يستطيع أن يجزم بحقيقتِه؛ فطبيعتهم وأساليبُهم طالما كانت له واضحة جليةً. لا غرابةَ ولا دهشةَ في ذلك. لكن أن يراهم اليوم بالذاتِ علي ضفته؛ فهو ما لا يستطيع فهمه.

كل الضفاف ملكُ يمينه؛ هو حارسُها منذ آلاف السنين. لم يقصِّر؛ لم يَهِنْ عزمُه. ربما كان هوان من بيدهم الأمر؛ وارتباكهم أضاع منه ضفة. سنين عدة؛ نسج فيها أعداؤه أساطيرَهم وآلهتهم علي أشلائه هو ورفاقه. لكن، حتى في أعتى درجات سطوتِهم؛ لم يستطيعوا حرمانَه مما لم يجرؤوا هم أنفسهم عليه. لم تمنعه هو ورفاقه نيرانُهم أن يسبحوا في المياه...يتمتَّعوا بقدسيَّتها؛ يعانقوا حورياتها التي كانت تنشدهم النصر قبل أن يولد.

واليوم؛ حين تغيّرت المعادلة علي يديه هو ورفاقه. أو بمعني أدقّ؛ عادت لتوازنها الصحيح. يراهم أمامَه هنا؛ علي الضفة الغربية؟!

لقد اختلط عليه الأمرُ بالتأكيد؛ فقد كان يقاتل منذ أيام قلائل على الضفة الأخرى. ما يزال يذكر تلك اللحظة وينتشي بها. اللحظة التي سطر فيها هو ورفاقه تاريخًا تهاوتْ أمامه الملاحم الإغريقية القديمة. اللحظة التي أشهدوا فيها العالم أجمع؛ أن الحقيقة فقطْ عنده هو ورفاقه؛ وما عداهم أوهام. حتى أتته الإصابة...الإصابة التي ظنَّ معالجوه، وقادته، وربما أعداؤه؛ أنها ستمنعه أن يكمل ما بدأ. ألا يدركون أن الروح في ثورتها وانطلاقها لا تهتم بقيود الجسد؟...وهو ما عبّر عنه بجملةٍ واحدة: ولو بنصفِ جسدٍ يا فندم سأحارب!

وكم كانت تلك اللحظة قاسية عليه؛ اللحظة التي ألحق فيها على وحدة إدارية في الضفة الغربية....والقائد يُرَبِّتُ على كتفه: "لمصلحتك".

ود لو يصرخ في وجهه: "أي مصلحة وأي حماية؟...ألقينا في معارك ليست لنا، سنين عدة؛ دون أي تخطيط تحت مسمَّى الحماية. فوق رؤوسنا تهاوت منازلنا؛ هجَرنا منها. صدرت لنا الأوامر بالانسحابِ وبإخلاءِ جميع الميادين

بمسوّغ الحماية. أي حماية تلك التي تترك الروح في اهتراءِ الخرق البالية؟ حماية القبرِ الطيني الذي يضمها ويحويها؟....لقد أثبتنا أنَّه لا سبيل للحماية إلا بالقتال...القتالُ وحدَه. أراد أن يلقيَ ما بجوفه دفعةً واحدة؛ لكنه اكتفي بأن أدى التحية العسكرية وبقوة"!

لا بد أن هذا هو التفسير إذن. شوقه للقتال الذي حرم منه جعلَه يتوهمُهم هنا أمامه. شدَّ قامته وتقدم؛ عملاقٌ خطواته عرجة؛ من أثر إصابته. ولربما كانت إصابته النفسيّة أشد تأثيرًا من الجسمانية. صاح: "كلمة السر"!..

ربّما كان الأمر في النهاية لا يعدو كونه بعض رفاقه؛ يتجولون بالخطأ في مربع حراسته. وسرعان ما سيردّدون في آليةٍ كلمة الأمان التي لقنتهم إياها القيادة. أو ربّما كانوا رفاقه الموتى؛ الذين طالما حاوَرَهم؛ يستنطقهم؛ بعد كشف الحجبِ عن الأبصار إجابات الأسئلة التي كانت ولا تزال تؤرّقه وتؤرّقُهم. حتى لو كانوا الأعداء فعلًا؛ فهي فرصتُه ليريهم حقيقته. أيًّا كان الأمر. فليهنأ الآن بالشهادة التي نالها عدةَ مرات من قبل؛ وليترك الأسئلة؛ كما كانت دائمًا.....مُعَلَّقَةً!!